

# ذكر عدد الأمم وأنواعها

..... وأما ما سمعنا من عدد المخلوقات التي خلقها الله والأمم التي نوعها فذكر في هذه الآثار أن الله خلق ألف عالم ألف أمة الإنس أمة والجن أمة والنسبطين أمة والملائكة أمة هؤلاء مكلفون والبقية غير مكلفين، فنقول مثلا: إن الإبل أمة والبقرة أمة والضأن أمة والمزعة أمة والخيول أمة والحمير أمة والطيور أمة والوعول أمة، وكذلك الذئب والأسود والضباع والقهود وما أشبهها، وكذلك أيضا الصيود الأخرى كالآرنب والبربوع والغار والجرذ والوبر وما أشبهها. كذلك أيضا الطيور النسور أمة والعقاب أمة والغراب أمة والصفرة أمة واللبازي أمة وأشبه ذلك، وكذلك الطيور الصغيرة والحشرات ونحوها البعوض أمة والذباب أمة والنحل أمة وأشبه ذلك، وهكذا أيضا دواب البحر يعني أن هذه الدواب والطيور التي في البر ذكروا أنها أربعماتة، أربعماتة أمة من الطيور ومن الحشرات التي تمشي على الأرض، وإذا أقيمت في الماء ماتت أربعماتة أمة وأما دواب البحر فذكر كما سمعتم أنها ستمائة أمة منها ما هو كبير ومنها ما هو صغير. قد مر بنا أن من الدواب الدابة التي تنمط نبي الله يونس جوت كبير التقمه وبقي في بطنه ومع ذلك بقي له ينكسر منه عظم ولم يخرج منه جلد مما يدل على عظمته. وكذلك الحوت الكبير الذي مر بنا وأذلى القاه البحر يقال له: العنبر كان جلد أو كانه كئيب رمل على الصخرة يأكلون منه شهرا وهم ثلاثماتة قد أصابهم ومسيهم الجوع كثيرا ولم ينقصوه إلا شينتا يسيرا وتزودوا منه، لا شك أن هذا دليل على عظمة هذه المخلوقات وعلى عظمة ما هي ما بها من خلق الله سبحانه وتعالى، وهكذا أيضا كثرتها لا يحصيها إلا الله صغارا وكبارا منها ما قد يخرج ويعيش في البر يشاهد أن الضفادع تخرج إلى شاطئ البحر ثم بعد ذلك تنغمس في الماء ولا تموت لا في البر ولا في البحر، من آيات الله الدواب الأخرى كالمسك ونحوها إذا أخرجت من الماء ماتت قواما لأن نفسها بذلك الماء؛ يعني هو الذي يكون لها بمنزلة النفس الذي للحوانات البرية الإنسان والبقر والغنم ونحوها، هذه تنفست من هذا الهواء الذي هو على فوق الأرض. وأما تلك الدواب البحرية فإنها تنفست بالماء يدخل الماء في أجوافها فيكون كغذاء لها فهذه من عجائب خلق الله من آيات الله أن جعل هذه تعيش في البر وتموت في البحر وهذه تعيش في البحر وتموت في البر، ويسر لكل رزقه هذه الدواب التي في البحر لا بد لها من غداء، ما غداؤها؟ ليس غداؤها هو مجرد الماء فقد يكون الماء غير كاف، ويمكن أن كثيرا منها غداؤها هو الماء لا تتغذى على غيره تعيش عليه، ولكن معروف أن البحر يموت فيه دواب كثيرة وأين تذهب تلك الدواب التي تموت فيه مع كثرتها ومع توالدها، معلوم أنها يأكلها الأخرى دواب البحر يأكل بعضها بعضا جعل الله هذا البحر ملحا شديد الملوحة حتى لا يبتن ولا يكون خائسا بكثرة ما يموت فيه من الدواب وهذا من حكم الله تعالى حتى لو مات فيه شيء من دواب البر ما أتنن ولا تغير فيها، إذا ألقى فيه مثلا جمل ومات الجمل ثم أخرج لا يوجد له الرائحة التي تكون فيه إذا مات في خارج البحر. وكذلك مشاهد أن الناس إذا كان معهم لحم قبل وجود التلجات جعلوا عليه هذا الملح حتى يحفظه ويحفظه عن أن يتغير ربحه؛ لأن الملوحة التي كملوحة البحر تحفظ اللحوم ونحوها عن التغير وعن التعفن. وبكل حال.. فإن آيات الله -عز وجل- عظيمة نصيها لعباده وأمرهم أن يعتبروا ويتفكروا أنه سبحانه جعل لها رزقا وسخر لها رزقا قال الله تعالى: { وَمَا مِنْ دَابَّةٍ مِنْ الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا } . { قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ } فكل ذلك دليل على أن هذه الجمادات ونحوها جعل الله تعالى فيها إحساسا وجعل فيها حياة تناسبها وإن كانت في الظاهر لا حركة فيها. وكذلك القسم الثاني النبات لا شك أن فيه حياة فإن الناس يقولون هذه شجرة حية، وهذه شجرة ميتة فالحية هي التي تتنامى وتزبد وتمتد وتورق ويسري فيها الماء فتكون فيها هذه الحياة ولكن حياتها ناقصة ليست اختيارية؛ ولأجل ذلك لا تتألم بالجوع وبالظلمة ولا تتألم بالضرب يعني يأتي إليها من يقطعها بفأس أو بيخيل ولا تتألم ولا تشتكي، ولكن جعل الله تعالى فيها حياة تناسبها وأجبر بان الأرض المعيشية تكون حية كما في قوله تعالى: { كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا } انظر { كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا } فموتها كونها يابسة وحياتها كونها تهتز خضراء فيها أنواع هذه النباتات. ولا شك أن وجود هذه النباتات آية من آيات الله تعالى، فإنه تشاهد الأرض يابسة قاحلة ليس فيها آية نبات ولا آية خضرة ينزل عليها الماء من السماء فتشرب ذلك الماء فإذا تشربته أخرجت أنواعا من النبات يقول تعالى: { كَمَا إِذَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ } يعني ماء المطر فتصبح الأرض مخضرة يعني بعد أيام بخضر ويكون فيها هذا النبات، وتشاهد أيضا أنه مختلف الأنواع مختلف الزهور والطعوم والألوان والروائح والأشكال والأغراب والزهور والثمار؛ منه ما هو شجر كبير يرتفع على الأرض عدة أمتار، ومنه ما هو شجر قصير، ومنه ما ليس بشجر ولكنه يمتد وينسبط على الأرض، ومنه ما هو نبات صغير لا يكون له أطراف تمتد منه ما هو غذاء للإنسان، ومنه ما هو غذاء للطيور، ومنه ما هو غذاء للبهائم وما أشبه ذلك، وليس من شيء عث بل كله لا بد أن يكون لله تعالى فيه حكمة. فذلك لا شك آية من آيات الله تعالى حيث جعله علامة واضحة على إحيائه الأرض بعد موتها كما في قول الله تعالى: { اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ سَخَابًا } { حَتَّىٰ إِذَا أَفْلَحَ سَخَابًا بِقَلْبًا سَفَرْنَا لَنُدَّ لِلدَّيْنِ قَاتِلًا يُهِدِي السَّبِيلَ إِلَىٰ مَرْجَاهِ وَيَنْصُرُ الْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِي اللَّهُ الرِّيحَ لِمَشَافَرِهِمَا وَرُوحَ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّهِ بِاللُّغَمَاتِ } . { وَمَا مِنْ دَابَّةٍ مِنْ الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا } ويقول تعالى: { وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أُمَّةً لَكَ } فهذه الحيوانات المتحركة هي خلق الله خلقها وأوجدها كما شاء ثم جعلها من طبيعتها تتوالد وتتناسل، وكل دابة تعرف شكلها وتالف جنسها ولا تشبهه واحدة بالأخرى بل كلها كما خلقها الله تعالى فالطيور أشكال وأجناس منها الكبير والصغير؛ فالكبير منها الذي هو مثلا كالفيل والزرافة والنعام والإبل وما أشبهها قدر الله تعالى أنها تتوالد وتتناسل ولا تشبهه بغيرها، فلا يمكن أن يلد العنبر ثورا أو حمارا أو فرسا، بل الإبل تلد أمثالا لا تلد الناقة إلا ما يماثلها. وكذلك البقر، البقر أجناس البقر والجواميس، الإبل أجناس العرب والبخاتي البختي هو الذي له سنامان وكل من جنس فالبختي يلد مثله والعرب تلد مثله، وكذلك مثل الضأن والماعز لا يمكن أن ينزو النيسر على النعجة ولا أن تلد النعجة نيسا أو عنزا، جعل الله تعالى كلا يميل إلى شكله وإلى جنسه هذا معنى قوله تعالى: { الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى الْغَنَمِ كُلِّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى } يقول بعض العلماء: هداها لما تكون به لما يكون به وجودها ولما تكون به حياتها عرفها بالأغذية التي تناسبها من الأعلاف وما أشبهها، وكذلك أيضا يهدي الذكور لكيفية الفلاح الإناث إذا دخلت الإناث من الضأن على الكباش فإن الكباش يعرف الكباش من النعجة، ولهذا لا ينزو على كباش مثله لا ينزو على ذكر مع أنها في الظاهر مستوية، أنت مثلا لو رأيت كينسا ونعجة في الخلفة على حد سواء فرأيتها في الظاهر هل تميز وتقول هذا ذكر وهذا أنثى لا تميز ذلك إلا بعد ما تلمسها أو تسأل عنها، ولكن الذكر يميز ذكورها من إناثها يعرف ذلك إما بالرائحة وإما بالشكل واللون وما أشبه ذلك. لا شك أن هذا من آيات الله تعالى هذا معنى قوله: { الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى الْغَنَمِ كُلِّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى } كذلك أيضا قدر الله لها أوزانها وأقواتها هذا معنى قوله: { إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا } وهكذا أيضا بقية الحيوانات، معروف مثلا أن هذه الطيور الصغيرة أشكال وأنواع والعصافير شكل طاهر وهنا شكل يماثلها طائر يقال له: الحمرة وكذلك أشكال أخرى تقاربها، فنقول هل ذكر الحمرة مثلا تلتج ذكور المعطائل تلتج الإناث؟ لا تلتجها وإنما يختص بالإنسان التي تناسبها، تقدير من الله تعالى حتى تتواجد تتواجد كما هي، وكثيرا ما يختلط الإوز والدجاج والبط وما أشبهه ومع ذلك كل يميل إلى شكله وكل يختص بإناثه ذكوره تختص بالإناث التي هي من جنسها لا شك أن هذا تصديق بهذا القول { الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى الْغَنَمِ كُلِّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى } اللهم سبحانه هذه بقطرتها، ولم يكن هناك من يعلمها ليست مثل الإنسان الذي يعلم بعضه بعضا إنما تعلمها بالفطرة فطرها الله تعالى حتى عرفت ما يناسبها من النباتات ومن الحبوب وما أشبهها. وكذلك أيضا كل الحيوانات الصغيرة والكبيرة حتى مثلا النمل والذرة والبعوض، وما ينشئه من هذه الطيور الصغيرة والذباب ونحوه هذه كلها بعضها يميل إلى بعض ولا يميل إلى جنس آخر، بل كل يميل إلى شكله وتعرف ذكورها من إناثها، نشاهد مثلا الجراد ذكورا وإناثا، ثم إن الله تعالى جعل الذكور فيقدر الإناث إذا نظرتنا لا نجد ذكرا إلا يوجد له أنثى إذا أراد الله أن تتوالد فإنه ينزو أو يركب كل ذكر على أنثى، ولا نجد ذكرا معزلا لم يجد أنثى ولا أنثى لم تجد ذكرا حتى يحصل هذا التوالد تلتج ذكورها إناثها ثم بعد ذلك ألهمها كيف تتوالد؛ ألهم هذا الجراد أن تغرس ذنبا في الأرض، وأن تلقي هذا الحب الصغير الذي في ذنبا في كيس من شبه شيء رقيق تختمه وتدهنه ويبقى في الأرض وتغفل عنه إلى أن يشب ويكبر ثم يخرج نفسه ويدب على الأرض وهو ما يسمى بالبداء، ثم بعد ذلك يكبر وتنتب له الأجنحة هذا ألهم من الله تعالى، عندما مثلا الضب المعروف بيض بيضا ثم ألهمه الله أن الأنثى تحفر ليبيضا ثم تدفنه بتراب يناسبه وإذا جاء الوقت الذي قد فقس فيه وخرج ضبابا ألهمها أن تحفر مكانا إلى أن تصل إلى ذلك البيض، وإذا هو قد خرج من بيضه ضبابا صغيرة وليس لها عهد بعد ذلك بل إذا أخرجته فإنه يدب على الأرض وينتشر ويضعم يأكل من النباتات ويحفر لنفسه ويغني نفسه. وفي حديث ذكره بعض أهل السنن كما في جامع الأصول: أن رجلا جاء إلى حمرة وأخذ فراخها صغيرة ولما أخذها جعلها في عمامته فرأته الأم وأخذت تبعه تبعه جاء بتلك الفراخ إلى النبي- صلى الله عليه وسلم- عرف النبي- صلى الله عليه وسلم- أن هذا الطير قد فجع في فراخه فقال: { من فجع هذه الحمرة في فراخها فقال الرجل: أنا فلما نشر تلك الفراخ وإذا هي صغيرة جعلت الأم تدور حولها ووقعت عليها من رحمتها بها فلما رأى هذه الرحمة عند ذلك أمره بأن يرد فراخها من حيث أخذها } هذه الطيور ترحم صغارها ما دامت محتاجة إليها ما دامت هذه الصغار لم تنبت لم ينبت ريشها ولا أجنحتها ولا تستطيع أن تطير، فإذا طارت واستطاعت أن تعني نفسها وأن تحصل قوتها نسيها أمها واشتعلت بغير رحمة من الله تعالى لها ما دامت صغيرة. وكذلك أيضا يشاهد هذا في الحيوانات مثلا الغنم ترضع أطفالها ما دامت صغارا وتحنو عليها، وكذلك البقر والحمرة والإبل ونحوها فإذا استغنت تلك الرجال والأطفال فإنها لا تتسال عنها بعد ذلك، بل الأصل أنها تكفي نفسها وتهتم بأولادها الآخرين، وهكذا هذه الرحمة التي جعلها الله تعالى في قلوب هذه الحيوانات تدل على أنه سبحانه ما أصاح شئنا من خلقه وأنه خلق هذا الخلق وجعل لهم هذا الرزق الذي قدره وضمنه وألهم كل نوع من الحيوانات الحية ما يقوم بحياته وما يقيم أوده. كل ذلك آية وعبرة عظيمة دالة على عظمة من أوجد ذلك وخلقها، فهكذا قد ذكر العلماء أن هذه المخلوقات لا يحصى عددها إلا الله، فمنها مثلا الطيور تعتبر قسما من الأقسام صغيرها وكبيرها، صغيرها كالبعوض، وكبيرها كالنسر أو ما أشبهها من الطيور الكبيرة التي تستقل وتطير، وهي أشكال وأنواع وكل قد عرف رزقه وعرف قوته وأعطاه الله تعالى ما يقاتل به بحيث إنك لا تشاهده يموت جوعا لا تشاهده ذرة ماتت من الجهد والجوع يبسر الله تعالى إلى البرق الذي تحيا به، ولا تشاهد أيضا بعوضة ماتت من الجهد ولا تشاهد غرابا أو نسرا أو عقابا مات من الجهد، جعل الله تعالى رزقها بقدر قوتها وجعل لها المعرفة لما يقوته، فهي مثلا تنتم رائحة الميتة التي تناسبها من عشرات الكيلوات، وإذا شممتها جاءت إليها كذلك أيضا البصر معها قوي بصر تشاهد مثلا عين الذئب وعين الضفادع مع صغرها تتحرك ما لا تحرفه عين الإنسان تبصر الأشياء الصغيرة من مسافة بعيدة، وهكذا أيضا تعرف قوتها وما يناسبها، وكذلك أيضا الحيوانات البرية الوحوش ونحوها الطيأ والوعول وحمير الوحوش وبقر الوحوش والإبل والتيتل والأرؤى، وأنواع هذه الصيود جعل الله لها في معرفتها أن الإنسان يصطادها ويقتنصها أعطاه الله تعالى قوة السير وقوة السعي بحيث إنها تسعى كثيرا يعجز الإنسان أن يدركها. وكذلك أيضا جميع الحيوانات ألهمها الله تعالى كيف تعيش تكلم العلماء على ذلك وأطالوا وبنوا أن هذه من آيات الله تعالى فهناك كتاب للدميري (حياة الحيوان) يتكلم فيه على الحيوانات وأسمائها حتى استقصى كل شيء مما فيه حياة مستقرة، وكذلك قبله للجاحظ كتاب (الحيوان) أيضا يتكلم فيه على أسمائها وعلى أشكالها وأجناسها وأنواعها، وهناك أيضا كتاب اسمه (عجائب المخلوقات) للفريوني يتكلم فيه على المخلوقات على النباتات وعلى الطيور وعلى الحيوانات البرية وما أشبهها، وتكلم فيه أيضا على الإنسان وبين ما فيه من عجيب صنع الله تعالى فكل هذه آيات دالة على أن لها خالقا وأن لها لم توجد نفسها. ومع هذه الآيات وهذه العجائب فإن هناك طائفة وهم الفلاسفة يتكرون بدء الخلق ويتكرونها نهايته ويدعون أن هذه طبائع وأن ليس هناك من أوجدها وإنما وجدت بالطبيعة وينسبون ما فيها من الآيات والعجائب؛ ولأجل ذلك أورد ابن كثير رحمه الله عند تفسير قول الله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } الَّذِي خَلَقَكُمْ الْأَرْضَ فَتَرَاهَا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ } فذكر أن في هذه أدلة على وجود الخالق وعلى كمال قدرته، وذكر عن الأئمة أنارا تدل على اعتبارهم بما في هذا الوجود وما في هذا الكون من الآيات وعجائب المخلوقات الدالة على صنع الله تعالى كما في قوله: { صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ كُلَّ شَيْءٍ } يعني هذا صنع الله، وكما في قوله تعالى: { هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ } فهذه النوع الذي هو توحيد الربوبية يقر به كل عاقل وإنما يجدهه المعاندون ولذلك يقول ابن المعتز فواجبا كيف يعصي الإله أم كيف يجدهه الجاحد وماذا كل شيء له آية تدل على أنه واحد وليس له في تحريكه وتسكينه أبدا شاهد يعني أن كل تامل هذه الحركات وتأمل هذه الموجودات وجدها آيات ودلالات على قدرة من أوجدها وأنشأها، وأن الطبايعيين والدهريين والشيوعيين والمعتولين أنهم خالفوا العقول وخالفوا المنقول وأنهم عاندوا عقولهم وعاندوا هذا الوجود، وإذا كان كذلك فإن الإقرار فطري الإقرار بوجود الخالق يعتبر فطريا بحيث أن الفطر السليمة والعقول المستقيمة تقر بهذا النوع.